وقال ابن الجُلاَح[1] : [من البسيط]

رُزِقتُ لُبّاً ولم أُرزَقْ مروءتَهُ ... وما المروءةُ إلا كثرةُ المالِ
إذا أردتُ مُساماةً تُباعِدُني ... عمَّا يُنوِّهُ باسمي رِقَّةُ الحالِ

وقال أوس بن حجر[2] : [من الطويل]

أُقيمُ بدارِ الحَزْمِ ما دامَ حَزْمُها ... وأحْرىٰ إذا حالَتْ بأنْ أتحَوَّلا
فإنِّي وجَدْتُ النّاسَ إلا أقلَّهُمْ ... خِفافَ العُهودِ يُكثِرونَ التَّنقُّلا
بَني أمِّ ذي المالِ الكثيرِ يرَونَهُ ... وإن كان عبداً سيدَ الأمرِ جَحْفَلا
وهُمْ لمقلِّ المالِ أولادُ عَلّةٍ ... وإن كان مَحْضاً في العَشيرة مُخوَلا

وقال أبو بشر الضرير[3] : [من الطويل]

كفىٰ حَزَناً أني أروحُ وأغتدي ... وما لي من مالٍ أصون به عرضي
وأكثر ما ألقى الصديقَ بمرحباً ... وذلك لا يكفي الصديق ولا يُرضي

وقال آخر[4] : [من الطويل]

أجلَّكَ قومٌ حينَ صِرْتَ إلى الغِنىٰ ... وكلُّ غنيٍّ في العُيونِ جَليلُ
وليسَ الغِنىٰ إلا غِنىً زَيَّنَ الفَتىٰ ... عَشيّةَ يَقرِي أو غَداةَ يُنِيلُ

وقد اختلف الناسُ في تفضيل الغنىٰ والفقر ، مع اتِّفاقهم : أنَّ ما أحوجَ من الفقر مكروهٌ ، وما أبطرَ من الغنىٰ مذمومٌ .

فذهب قوم إلىٰ تفضيل الغنىٰ على الفقر ؛ لأنَّ الغنيَّ مقتدر ، والفقيرَ عاجز ،

---

(١) البيتان ليسا في « ديوانه » المطبوع ، ومنسوبان للخليل في « ديوانه » (ص ١٨) ، وانظر « عيون الأخبار » (١/ ٢٣٩) ، والمساماة : المفاخرة .

(٢) الأبيات في « ديوانه » (ص ٨٣ ، ٩١) .

(٣) أوردهما ابن أبي الدنيا في « إصلاح المال » (١٠٥) ، والبيتان زيادة من (ج ، هـ) .

(٤) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٣١٨) ، يقري : ما يقدم للضيف ، وينيل : يعطي ، وفي البيت نصح وإرشاد لِما يفعله صاحب المال ، أو هو تعريض ببخل المخاطب .

والقدرة أفضل من العجز ، وهٰذا مذهب مَن غلب عليه حبُّ النباهة .

وذهب آخرون إلىٰ تفضيل الفقر على الغنىٰ ؛ لأنَّ الفقيرَ تارك ، والغنيَّ مُلابِس ، وتركُ الدنيا أفضلُ من ملابستها ، وهٰذا مذهب مَن غلب عليه حبُّ السلامة .

وذهب آخرون إلىٰ تفضيل التوسُّط بين الأمرين ؛ بأن يخرج عن حدِّ الفقر إلىٰ أدنىٰ مراتب الغنىٰ ؛ ليصل إلىٰ فضيلة الأمرين ، ويسلمَ من مَذمّة الحالين ، وهٰذا مذهبُ مَن يرىٰ تفضيل الاعتدال ، وأنَّ خيار الأمور أوساطُها ، وقد مضىٰ من شواهد كلِّ فريق في موضعه ما أغنىٰ عن إعادته .

والسبب الثالث : أن يطلبَ الزيادة ، ويقتنيَ الأموال ؛ ليدَّخرها لولده ، ويخلِّفها علىٰ ورثته مع شدة ضنِّه علىٰ نفسه ، وكفِّه عن صرف ذلك في حقِّه ؛ إشفاقاً عليهم من كدح الطلب ، وسوء المنقلَب .

فهٰذا شقيٌّ بجمعها ، مأخوذٌ بوِزرها ، قد استحقَّ اللومَ ، واستوجب الذمَّ من وجوه لا تختلُّ علىٰ ذي لبٍّ :

منها : سوءُ ظنِّه بخالقه في أنه لا يرزقهم إلا من جهته ، وقد قيل : (قتل القنوطُ صاحبَه) .

وفي حسن الظنِّ بالله تعالىٰ راحةُ القلوب ، وقال عبد الحميد : (كيف تبقىٰ علىٰ حالتِك والدهرُ في إحالتِك ؟!)[1] .

ومنها : الثقةُ ببقاء ذلك علىٰ ولده مع نوائب الزمان ومصائبه ، وقد قيل : (الدهرُ حَسُودٌ ، لا يأتي علىٰ شيءٍ إلا غيَّره) .

وقيل في منثور الحكم : (المالُ مَلُولٌ)[2] .

---

(١) في إحالتك : في إفنائك ، يقال : أحالت الدار : إذا أتىٰ عليها أحوال ؛ أي سنون .

(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٣٩٣) .

وقال بعض الحكماء : (**الدنيا إن بقيت لكَ . . لم تبقَ لها**)[1] .

ومنها : ما حُرِم من منافع ماله ، وسُلِب من وُفور حاله ، وقد قيل : (**إنَّما مالُكَ** : لكَ ، أو للوارث ، أو للجائحة ، **فلا تكن أشقى الثلاثة**)[2] .

وقال عبد الحميد : (**اطَّرِحْ كواذبَ آمالِك ، وكنْ وارثَ مالِك**) .

ومنها : ما لحقه من شقاءِ جمعه ، وناله من عناءِ كدِّه ، حتّىٰ صار ساعياً محروماً ، وجاهداً مذموماً ، وقد قيل : (**ربَّ مغبوطٍ بمَسرّةٍ هي داؤه ، ومرحومٍ من سقَمٍ هو شفاؤه**)[3] .

وقال الشاعر[4] : [من الطويل]

وَمَن كلَّفَتْهُ النَّفسُ فوقَ كَفافِها ... فما ينقضي حتّى المَماتِ عَناؤُهُ

ومنها : ما يُؤاخَذ به من وزره وآثامه ، ويُحاسَب عليه من تبعاته وإجرامه ؛ **كما حُكي** : أنَّ هشام بن عبد الملك لمَّا ثقُل . . بكىٰ عليه ولدُه ، فقال لهم : (**جاد لكم هشام بالدنيا** ، وجُدتم عليه بالبكاء !! **وترك لكم ما كسب** ، وتركتم عليه ما اكتسب !! **ما أسوأ حالَ هشام إن لم يغفر الله له !!**)[5] .

فأخذ هـٰذا المعنىٰ محمود الورَّاق ، فقال[6] : [من المتقارب]

تمتَّـعْ بمـالِـكَ قبـلَ المَمـاتِ ... وإلا فـلا مـالَ إنْ أنـتَ متّـا
شقِيـتَ بـهِ ثـمَّ خلَّفتَـهُ ... لغيـرِكَ بُعْـداً وسُحْقـاً ومَقْتـا
فجـادُوا عليـكَ بـزُورِ البُكـاءِ ... وجُـدتَ عليهـم بمـا قـد جمَعْتـا
فـأرهَنْتَهُـمْ كـلَّ مـا فـي يـدَيـكَ ... وخَلَّـوكَ رَهْنـاً بمـا قـد كسبْتـا

---

(١) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢٤٩) ، و« نهاية الأرب » (٦/ ١١٠) .

(٢) رواه في « البيان والتبيين » (٣/ ١٩١) ، وأورده في « بهجة المجالس » (١/ ١٩٦) من قول سيدنا أبي ذرّ رضي الله عنه .

(٣) أورده في « لباب الآداب » (ص ٤٦٣) .

(٤) البيت لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٤) .

(٥) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٠٨٧) ، و« الجليس الصالح » (٢/ ٣٨٦) ، **وترك لكم ما كسب** من الدنيا ، وتركتم عليه ما اكتسب من الآثام والمعاصي !!

(٦) الأبيات في « ديوانه » (ص ٨٨) .

وقد رُوي أن العبّاس بن عبد المطلب جاء إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسولَ الله ؛ وَلِّني ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبّاسُ ، يا عمَّ النبيِّ ؛ قليلٌ يكفيكَ خيرٌ من كثيرٍ يُردِيكَ ، يا عبّاسُ ، يا عمَّ النبيِّ ؛ نفسٌ تُنجيها خيرٌ من إمارة لا تُحصيها ، يا عبّاسُ ، يا عمَّ النبيِّ ؛ إنَّ الإمارةَ أوّلُها ندامةٌ ، وأوسطُها مَلامةٌ ، وآخرُها خِزْيٌ يومَ القيامةِ » فقال : يا رسولَ الله ؛ إلا مَن عدَل ؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « وكيف تعدِلُونَ معَ الأقاربِ ؟ »[1] .

وقال رجلٌ للحسن البصريِّ : (إنِّي أخاف الموتَ وأكرهه !! فقال : إنَّك خلَّفتَ مالَكَ ، ولو قدَّمتَه . . لسرَّكَ اللحاقُ به)[2] .

وقيل في منثور الحكم : (كثرةُ مالِ الميت تُعزِّي ورثتَه عنه)[3] .

فأخذ هـٰذا المعنى ابنُ الروميِّ ، فقال وزاد[4] : [من البسيط]

أبقيتَ مالَكَ ميراثاً لوارثِهِ فليتَ شِعْرِيَ ما بقَّىٰ لكَ المالُ
القومُ بعدَكَ في حالٍ تسرُّهُمُ فكيفَ بعدَهُمُ حالَتْ بكَ الحالُ
ملُّوا البكاءَ فما يَبكيكَ من أحَدٍ واستحكَمَ القِيلُ في الميراثِ والقالُ
أَلْهَتْهُمُ عنكَ دنيا أقبلَتْ لهُمُ وأدبرَتْ عنكَ والأيّامُ أحوالُ

والسبب الرابع : أن يجمع المال ، ويطلب المكاثرة ؛ استحلاءً لجمعه ، وشغَفاً باحتجانه[5] .

فهـٰذا أسوأُ الناس حالاً فيه ، وأشدُّهم حرماناً له ، قد توجَّهت إليه سائرُ

---

(١) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (٧٠٢٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٢١١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٨/ ٤٣٩) .
(٢) أورده في « البيان والتبيين » (١/ ٢٦٤) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٥٢٢) .
(٣) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٨/ ١٠٨) ، و« نثر الدر » (٣/ ١٥١) من قول عبد الله بن المعتز .
(٤) الأبيات منسوبة لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص٢٣٠) .
(٥) احتجان المال : جمعه وضم ما انتشر منه ، والاستلذاذ بجمعه وجذبه كما يُجذب الشيء بالمحجن .

المَلاوِم ؛ حتىٰ صار وبالاً عليه ، ومَذامَّ له ، وفي مثله قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « تبّاً للذَّهَبِ ، تبّاً للفضّةِ » فشقَّ ذلك علىٰ أصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : فأيَّ مالٍ نتخذُ ؟ قال عمر رضي الله تعالىٰ عنه : أنا أعلمُ لكم ذلك ، فقال : يا رسولَ الله ؛ إنَّ أصحابك قد شقَّ عليهم ما قلت ، وقالوا : فأيَّ مالٍ نتَّخذُ ؟ فقال : « لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، وزوجةً مؤمنةً تُعينُ أحدَكُم علىٰ دِينِهِ »[1] .

وروىٰ شَهْرُ بن حَوْشَبٍ ، عن أبي أمامةَ قال : مات رجلٌ من أهل الصُّفّة ، فوُجِد في مئزره دينارٌ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « كيَّةٌ » ثم مات آخر ، فوُجِد في مئزره ديناران ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كيّتانِ »[2] .

وإنَّما ذكر ذلك فيهما وإن كان قد مات علىٰ عهده مَن ترك أموالاً جمّةً ، وأحوالاً ضخمةً ، فلم يكن منه فيهم ما كان في هٰذين ؛ لأنَّهما تظاهرا بالقناعة ، واحتجَنا ما ليس بهما إليه حاجةٌ ، فصار ما احتجَناه وِزراً عليهما ، وعقاباً لهما .

وقد قال الشاعر[3] : [من الطويل]

إذا كنتَ ذا مالٍ ولم تَكُ ذا نَدىً ... فــأنــتَ إذاً والمُقتِــرُونَ سَــواءُ
علىٰ أنَّ في الأموالِ يوماً تِباعةً ... علــىٰ أهلِهــا والمُقتِــرُونَ بُــراءُ

وأُنشدت عن الربيع للشافعيّ رضي الله عنه[4] : [من الكامل]

إنَّ الذي رُزِقَ اليسارَ فلم يُصِبْ ... حمــداً ولا أجــراً لَغيــرُ مُــوفَّــقِ

---

(١) رواه الإمام أحمد في « الزهد » (١٤٠) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥٨٤) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٢٢٧٤) ، وقال في « منهاج اليقين » (ص٣٨٣) : (ولله در المصنف ؛ لقد ساق الآية في مساقٍ اندفع به شبهات المفسرين ، حتىٰ ذهب بعضهم إلىٰ أن آية الزكاة نسخت آية الكنز ، وبنى الزمخشري تفسيرها علىٰ ما روي عنه عليه السلام : « كل ما أديت زكاته . . فليس بكنز وإن كان باطناً ، وما لم يُزكَّ . . فهو كنز وإن كان ظاهراً ») .

(٢) رواه هنّاد في « الزهد » (٦٣١) ، والإمام أحمد في « المسند » (٥/ ٢٥٢) .

(٣) البيتان أوردهما الخطّابيُّ في « غريب الحديث » (١/ ٨٨) ممّا أنشده ثعلب ، والمُقتِرون : المُقِلُّون .

(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص ١٠٠ـ ١٠١) ، وفي « مناقب الشافعي » للبيهقي (٢/ ٩٢) ، =

والجَدُّ يُدني كلَّ شيءٍ شاسعٍ والجِدُّ يفتحُ كلَّ بابٍ مُغلَقِ
فإذا سمعْتَ بأنّ مَجْدُوداً حوىٰ عُوداً فأَوْرقَ في يدَيْهِ فحقِّقِ
وإذا سمعْتَ بأنّ محدُوداً أتىٰ ماءً ليشربَه فجفَّ فصدِّقِ
وأحقُّ خَلْقِ اللهِ بالهَمِّ امرُؤٌ ذو هِمَّةٍ يُبلىٰ بعيشٍ ضَيِّقِ
ومنَ الدَّليلِ على القضاءِ وكونِهِ بؤسُ اللَّبيبِ وطيبُ عيشِ الأحمقِ

وآفةُ مَن بُلِي بالجمع والاستكثار ، ومُنِي بالإمساك والادِّخار ، حتّى انصرف عن رشده فغوىٰ ، وانحرف عن سَنَن قصده فهوىٰ . . أن يستوليَ عليه حبُّ المال ، وبعدُ الأمل ، فيبعثه حبُّ المال على الحرص في طلبه ، ويدعوه بعدُ الأمل على الشحِّ به .

والحرص والشح أصلا كلِّ ذمٍّ ، وسببا كلِّ لؤمٍ ؛ لأنَّ الشح يمنع من أداء الحقوق ، ويبعث على القطيعة والعقوق ؛ ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « شرُّ ما أُعطِيَ العبدُ : شُحٌّ هالعٌ ، وجُبْنٌ خالعٌ »[(١)] .

وقال بعض الحكماء : (الغنيُّ البخيلُ كالقويِّ الجبان) .

وأمّا الحِرصُ . . فيسلب فضائلَ النفس ؛ لاستيلائه عليها ، ويمنع من التوفُّر على العبادة ؛ لتشاغله عنها ، ويبعث على التورُّط في الشبهات ؛ لقلّة تحرُّزه منها ، وهـٰذه ثلاثُ خِلالٍ هنَّ جامعاتُ الرذائل ، وسالباتُ الفضائل[(٢)] .

مع أنَّ الحريص لا يكسب بحرصه زيادةً علىٰ رزقه سوىٰ إذلال نفسه ، وإسخاط خالقه .

= والجد : الأول بالفتح : الحظ والبخت ، والثاني بالكسر : السعي والاجتهاد ، والشاسع : البعيد .
والمجدود : المحظوظ ، والمحدود عكسه ؛ وهو المحروم .
(١) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٢٥٠) ، وأبو داوود (٢٥١١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، وشح هالع : البخل الذي يمنع من إخراج الحق الواجب عليه ؛ فإذا استخرج منه . . هلع وجزع ، وجبن خالع : شديد يخلع الفؤاد من شدته .
(٢) وهـٰذه الثلاث هي : سلب الفضائل ، ومنع العبادة ، والتورط في الشبهات .

ورُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **الحريصُ الجاهدُ ، والقَنِعُ الزاهدُ . . يَستوفيانِ أُكُلَهُما غيرَ منتقَصٍ منه شيئاً ، فعلامَ التَّهافُتُ في النارِ ؟!** »[1] .

وقال بعض الحكماء : (**الحرصُ مَفسدةٌ للدِّين والمروءة ، والله ؛ ما عرفتُ من وجه رجلٍ حرصاً فرأيتُ أنَّ فيه مُصطَنعاً**)[2] .

وقال آخر : (**الحريصُ أسيرُ مهانةٍ ، لا يُفَكُّ أسرُه**) .

وقال بعض البلغاء : (**المقاديرُ الغالبة لا تُنال بالمُغالبة ، والأرزاق المكتوبة لا تُنال بالشدَّة والمُكالبة ، فذلِّلْ للمقادير نفسَك ، واعلم بأنَّك غيرُ نائلٍ بالحرص إلا حظَّك**)[3] .

وقال بعض الأدباء : (**ربَّ حظٍّ أدركه غيرُ طالبه ، ودَرٍّ أحرزه غيرُ حالبه**)[4] .

وأنشدني بعض أهل الأدب لمحمد بن حازم[5] : [من مجزوء الرمل]

يا أسيرَ الطَّمَعِ الكا ... ذبِ في غُلِّ الهَوانِ
إنَّ عِزَّ اليأسِ خيرٌ ... لَكَ مِن ذُلِّ الأماني
سامِحِ الدَّهرَ إذا عَزَّ ... وخُذْ صَفْوَ الزَّمانِ
ربَّما أَعدَمَ ذو الحِر ... صِ وأَثرىٰ ذو التَّواني

وليس للحريص غايةٌ مقصودةٌ يقف عندها ، ولا نهايةٌ محدودةٌ يقتنع بها ؛ لأنَّه إن وصل بالحرص إلىٰ ما أمَّل . . أغراه ذلك بزيادة الحرص والأمل ، وإن لم يصل . . رأىٰ إضاعةَ العناء لوماً ، والصبرَ عليه حزماً ، وصار بما سلف من عنائه أقوىٰ رجاءً ، وأبسطَ أملاً .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٤٥) ، وأورده ابن أبي الدنيا في « القناعة والتعفّف » (٦٦) من قول الحسن البصريّ رحمه الله .

(٢) رواه في « الأغاني » (٤/١٢٨٩) ، وأورده في « ربيع الأبرار » (٣/٤٣٨) من قول المأمون .

(٣) أورده في « البصائر والذخائر » (٣/١٥٦) .

(٤) أورده في « جمهرة الأمثال » (١/١٣٧) .

(٥) الأبيات في « ديوانه » (ص٩٨ـ العاشور) .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **يشيبُ ابنُ آدمَ وتَشِبُّ منه خَصلتانِ** : الحرصُ والأمل »[١] .

وقيل للمسيح عليه السلام : (ما بالُ المشايخ أحرصَ على الدنيا من الشباب ؟ قال : **لأنَّهم ذاقُوا من طعم الدنيا ما لم يذقْه الشباب**)[٢] .

ولو صَدق الحريصُ نفسَه ، واستنصح عقلَه . . **لعلم أنَّ من تمام السعادة ، وحسن التوفيق** . . الرضا بالقضاء ، والقناعةَ بالقَسْم .

رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **اقتصِدُوا في الطَّلَب** ؛ فإنَّ ما رُزِقتُمُوهُ أشدُّ طلَباً لكم منكم له ، وما حُرِمتُمُوهُ . . فلن تنالُوه ولو حرَصْتُم »[٣] .

ورُوي أنَّ جبريل عليه السلام هبط على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنَّ الله تعالىٰ يقرأ عليكَ السلامَ ، ويقول لكَ : اقرأ بسم اللهِ الرحمـٰن الرحيم : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ، فأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم منادياً فنادىٰ : « **مَن لم يتأدَّب بأدب الله تعالىٰ . . تقطَّعَتْ** نفسُه على الدنيا حَسَراتٍ »[٤] .

وقيل : (مكتوبٌ في بعض الكتب : **رُدُّوا أبصارَكم عليكم ؛ فإنَّ لكم فيها شغلاً**)[٥] .

وقال مجاهد في تأويل قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ قال : (**بالقناعة**)[٦] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٣٩) ، وابن ماجه (٤٢٣٤) عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) أورده في « البصائر والذخائر » (٨/ ١٣٠) ، و« محاضرات الأدباء » (٢/ ٣٢٩) .

(٣) أورده في « محاضرات الأدباء » (٢/ ٢٥٨) .

(٤) ذكره المؤلف في « النكت والعيون » (٣/ ٤٣٤) .

(٥) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ٨٢) عن مالك بن دينار رحمه الله تعالىٰ .

(٦) رواه الطبري في « تفسيره » (٨/ ١٤/ ٢٠٩) عن سيدنا علي رضي الله عنه والحسن البصري رحمه الله تعالىٰ .

وقال أكثم بن صيفيّ : (مَن باع الحرصَ بالقناعة . . ظفر بالغنىٰ والثَّروة)[1] .

وقال بعض السلف : (قد يخيب الجاهدُ الساعي ، ويظفر الوادعُ الهادي) .

فأخذه البحتريُّ فقال[2] : [من الكامل]

لم أَلْقَ مقدوراً على استحقاقِهِ   في الحظِّ إمّا ناقصاً أو زائدا
وعجِبتُ للمحدودِ يُحرَمُ ناصباً   كَلِفاً وللمجدودِ يغنمُ قاعدا
ما خَطْبُ مَن حُرِمَ الإرادةَ وادعاً   خَطْبَ الذي حُرِمَ الإرادةَ جاهدا

وقال بعض الحكماء : (إنَّ مَن قنع . . كان غنيّاً وإنْ كان مقتراً ، ومن لم يقنَعْ . . كان فقيراً وإنْ كان مُكثِراً)[3] .

وقال بعض البلغاء : (إذا طلبتَ العزَّ . . فاطلبه بالطاعة ، وإذا طلبتَ الغنىٰ . . فاطلبه بالقناعة ، فمَن أطاع الله عز وجل . . عزَّ نصرُه ، ومَن لزم القناعة . . زال فقرُه)[4] .

وقال بعض الأدباء : (القناعةُ : عزُّ المعسر ، والصَّدَقةُ : حرزُ الموسر)[5] .

وقال بعض الشعراء[6] : [من مخلّع البسيط]

إنِّي أرىٰ مَن له قُنُوعٌ   يُدرِكُ ما نال مَن تمنَّىٰ
والرِّزقُ يأتي بلا عَناءٍ   وربَّما فاتَ مَن تعنَّىٰ

---

(١) أورده في « ربيع الأبرار » (٥/ ٣٧٣) .
(٢) الأبيات في « ديوانه » (٢/ ٨٢١ـ ٨٢٢) ، والمحدود : المحروم ، والمجدود : ذو الحظّ .
(٣) أورده في « الكشكول » (٢/ ٨٩)
(٤) أورده في « الكشكول » (٢/ ٥٥) .
(٥) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص٢٧٩) ، و« الكشكول » (٢/ ٨٩) ، وحرز الموسر : حصنه وملجأه .
(٦) البيتان رواهما في « الطيوريات » (٧٩٩) ، وأوردهما في « الزهرة » (٢/ ٩٧) .

والقناعة قد تكون علىٰ ثلاثة أوجه :

فالوجه الأول : أن يقتنع بالبُلغة من دنياه ، ويصرف نفسه عن التعرُّض لما سواه ، وهٰذا أعلىٰ منازل أهل القناعة .

وقال الشاعر[1] : [من الطويل]

إذا شئتَ أن تحيا غنيّاً فلا تكنْ   علىٰ حالةٍ إلا رضيتَ بدونها

وقال مالك بن دينار : (أزهدُ الناسِ في الدنيا : مَنْ لم تتجاوز رغبتُه من الدنيا بُلغتَه) .

وقال بعض الحكماء : (الرِّضا بالكفاف يؤدِّي إلى العفاف)[2] .

وقال بعض الأدباء : (ربَّ ضيقٍ أفضلُ من سَعة ، وعناءٍ خيرٌ من دَعة)[3] .

وأنشدني بعض أهل الأدب وذكر أنَّه لعليِّ بن أبي طالب عليه السلام[4] : [من الوافر]

أفادتني القناعةُ كلَّ عزٍّ   وأيُّ غِنىً أعزُّ منَ القَناعَةْ
فصيِّرْها لنفسِكَ رأسَ مالٍ   وصيِّرْ بعدَها التَّقوىٰ بِضاعَةْ
تحُزْ رِبحَينِ تغنىٰ عن بخيلٍ   وتنعمُ في الجِنانِ بصبرِ ساعَةْ

والوجه الثاني : أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية ، ويحذف الفضول الزائدة ، وهٰذه أوسطُ أحوال المقتنع .

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما مِن عبدٍ إلا بينَه وبينَ

---

(١) في النسخ كلها إلا (هـ) : (وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال) ، وهو بيت شعر ذُكر في كثير من المصادر ؛ انظر « الصلة » لابن بشكوال (١/ ٢٦) ، و« وفيات الأعيان » (٣/ ٣٢٨) في ترجمة ابن حزم الظاهري حيث قالا عنه : (أنشدني والدي الوزير في بعض وصاياه لي رحمه الله تعالىٰ . . .) وذكرا البيت .
(٢) أورده في « الإمتاع والمؤانسة » (ص٢٧٩) ، و« يتيمة الدهر » (٤/ ٣٤٩) من قول أبي الفتح البستيّ .
(٣) خيرٌ مِن دعة : خيرٌ من سكونٍ وراحة .
(٤) الأبيات في « ديوانه » (ص١٦٢) .

رزقِهِ حِجابٌ ؛ فإن قنِعَ واقتصدَ . . أتاه رزقُهُ ، وإن هتكَ الحجابَ . . لم يُزَدْ في رزقِهِ »(١) .

وقال بعض الحكماء : (طلبُ ما فوقَ الكفافِ إسرافٌ) .

وقال بعض البلغاء : (مَن رضي بالمقدور . . قنع بالميسور)(٢) .

وقال البحتريّ(٣) : [من الرمل]

تَطلبُ الأكثرَ في الدُّنيا وقد ... تُبلَغُ الحاجةُ منها بالأقَلّْ

وأُنشدت لإبراهيم بن المدبّر(٤) : [من مجزوء الكامل]

إنَّ القَناعةَ والعَفا ... فَ ليُغنِيانِ عنِ الغِنىٰ

فإذا صبَرْتَ عنِ المُنىٰ ... فاشكُرْ فقد نِلْتَ المُنىٰ

والوجه الثالث : أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف علىٰ ما سنح ؛ فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً ، ولا يطلب ما تعذَّر وإن كان يسيراً .

وهٰذه الحال أدنىٰ منازل أهل القناعة ؛ لأنها مشتركةٌ بين رغبةٍ ورهبة ؛ أمّا الرغبةُ . . فلأنه لا يكره الزيادةَ على الكفاية إذا سنحت ، وأمّا الرهبةُ . . فلأنه لا يطلب المتعذِّرَ عن نقصان المادة إذا تعذَّرت .

وفي مثله قال ذو النون : (مَن كانت قناعتُه سمينةً . . طابت له كلُّ مَرَقة)(٥) .

وقد روى الحسن بن عليّ ، عن أبيه ، عن جدِّه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا دُوَلٌ ؛ فما كان منها لكَ . . أتاكَ علىٰ

---

(١) أورده في « عيون الأخبار » (٣/ ١٨٣) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١١١٢) من قول سيدنا عمر رضي الله عنه .

(٢) انظر « فيض القدير » (١/ ٢٢٤) .

(٣) البيت في « ديوانه » (٣/ ١٧١٧) .

(٤) أورد البيتين في « بهجة المجالس » (١/ ١٢٣) .

(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤١١) .

ضعفِكَ ، وما كان منها عليكَ . . لم تدفعْهُ بقوّتِكَ ، ومَن انقطعَ رجاؤه ممّا فات . . استراحَ بدَنُهُ ، ومَن رضيَ بما رزقَهُ اللهُ تعالىٰ . . قرَّتْ عينُهُ »[1] .

وقال أبو حازم الأعرج : (وجدت الدنيا شيئين : شيئاً هو لي لن أعجلَه قبلَ أجلِه ولو طلبتُه بقوّة السماوات والأرض ، وشيئاً هو لغيري ؛ وذلك مما لم أنلْه فيما مضىٰ ، ولا أنالُه فيما بقي ، يُمنَع الذي لي من غيري ؛ كما يُمنَع الذي لغيري منِّي ، ففي أيِّ هٰذين أُفني عمري ، وأُهلِك نفسي ؟!)[2] .

وقال أبو تمام الطائي[3] : [من الكامل]

لا تأخُذَنّي بالزَّمانِ فليسَ لي ... تَبَعاً ولستُ على الزَّمانِ كفيلا
مَنْ زاحفَ الأيّامَ ثمَّ عَبا لها ... غيرَ القَناعةِ لم يزَلْ مَفلُولا
منْ كان مَرعىٰ عزمِهِ وهُمومِهِ ... روضَ الأماني لم يزَلْ مَهزُولا
لو جار سلطانُ القُنُوعِ وحُكمُهُ ... في الخَلْقِ ما كان القليلُ قليلا
والرِّزقُ لا تكمَدْ عليه فإنَّهُ ... يأتي ولم تبعَثْ إليه رَسُولا

وأنشدني بعض أهل الأدب لابن الروميِّ[4] : [من الوافر]

جرىٰ قلَمُ القَضاءِ بما يكونُ ... فسِيّانِ التَّحرُّكُ والسُّكُونُ
جنونٌ منكَ أن تسعىٰ لرزقٍ ... ويُرزَقُ في غِشاوتِهِ الجَنينُ

ونحن نسأل الله تعالىٰ ـ أكرمَ مسؤولٍ ، وأفضلَ مأمولٍ ـ أن يُحسنَ لنا التوفيقَ فيما منح ، ويصرفَ عنّا الرغبة فيما منع ؛ استكفافاً لتبِعات الثروة ، ومُوبقات الشهوة !!

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٦١) عن زين العابدين عن أبيه عن جده رضي الله عنهم ، وأورده الديلمي في « الفردوس » (٣١١٣) ، والدنيا دول ـ جمع : دولة ـ : وهي عبارة عن انقلاب الزمان ، والغالبية والمغلوبية بالنوبة ؛ أي : ذات انقلابات كثيرة .

(٢) رواه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٢٤٠) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣/ ٢٣٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٢/ ٥٠) .

(٣) الأبيات في « ديوانه » (٣/ ٦٧ـ٦٨) .

(٤) البيتان في « يتيمة الدهر » (٥/ ١٦٣) لأبي الفرج بن هندو ، وفي « وفيات الأعيان » (٣/ ٢٨٣) لأبي الخير الكاتب الواسطيّ .

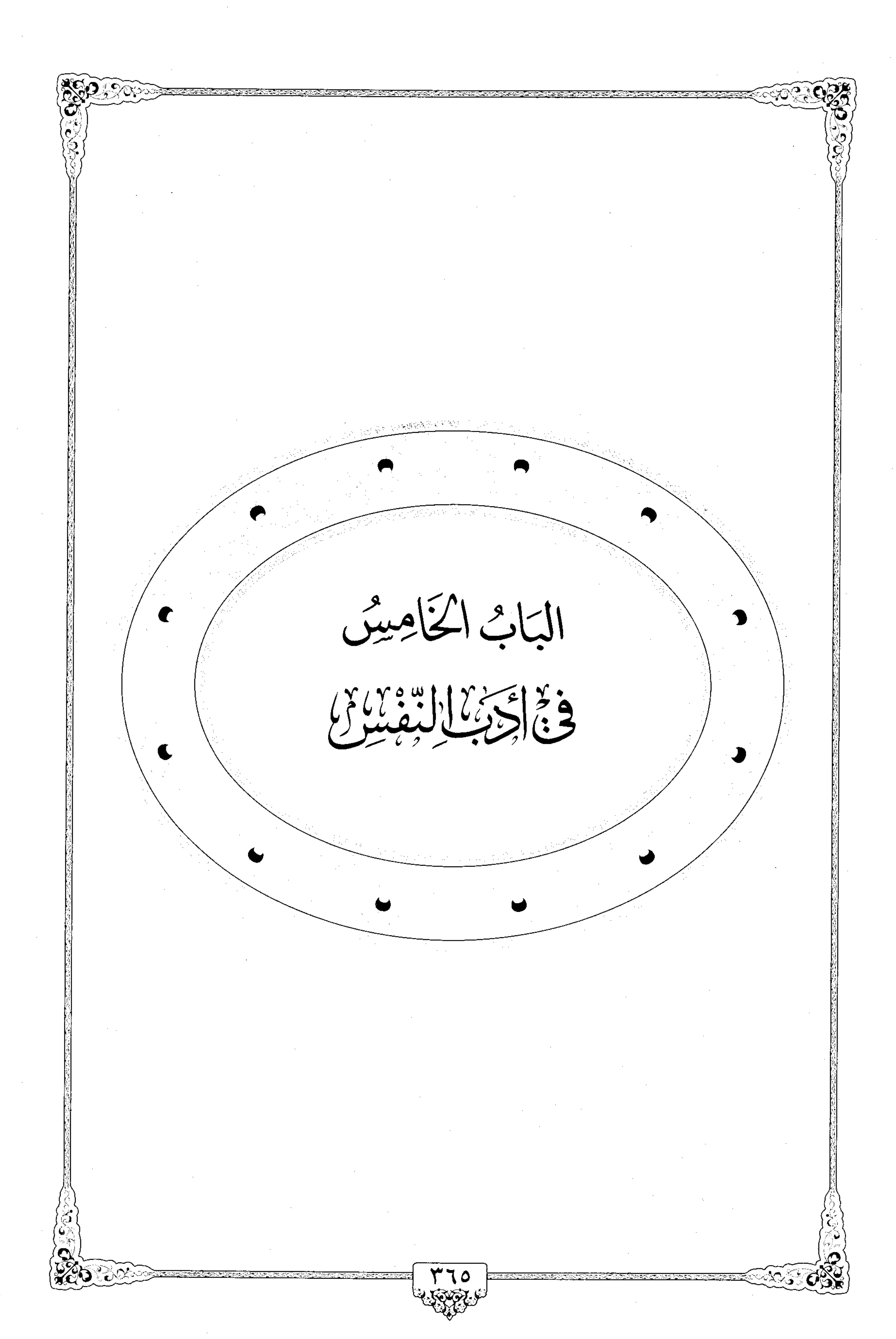
رویٰ شريك بن أبي نمر ، عن أبي الجِذْع ، عن أعمامه وأجداده ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيرُ أمّتي الذين لم يُعطَوا حتّىٰ يبطَرُوا ، ولم يُقتَّرْ عليهِم حتّىٰ يَسألُوا »[1] .

وقال أبو تمام الطائيّ[2] : [من الكامل]

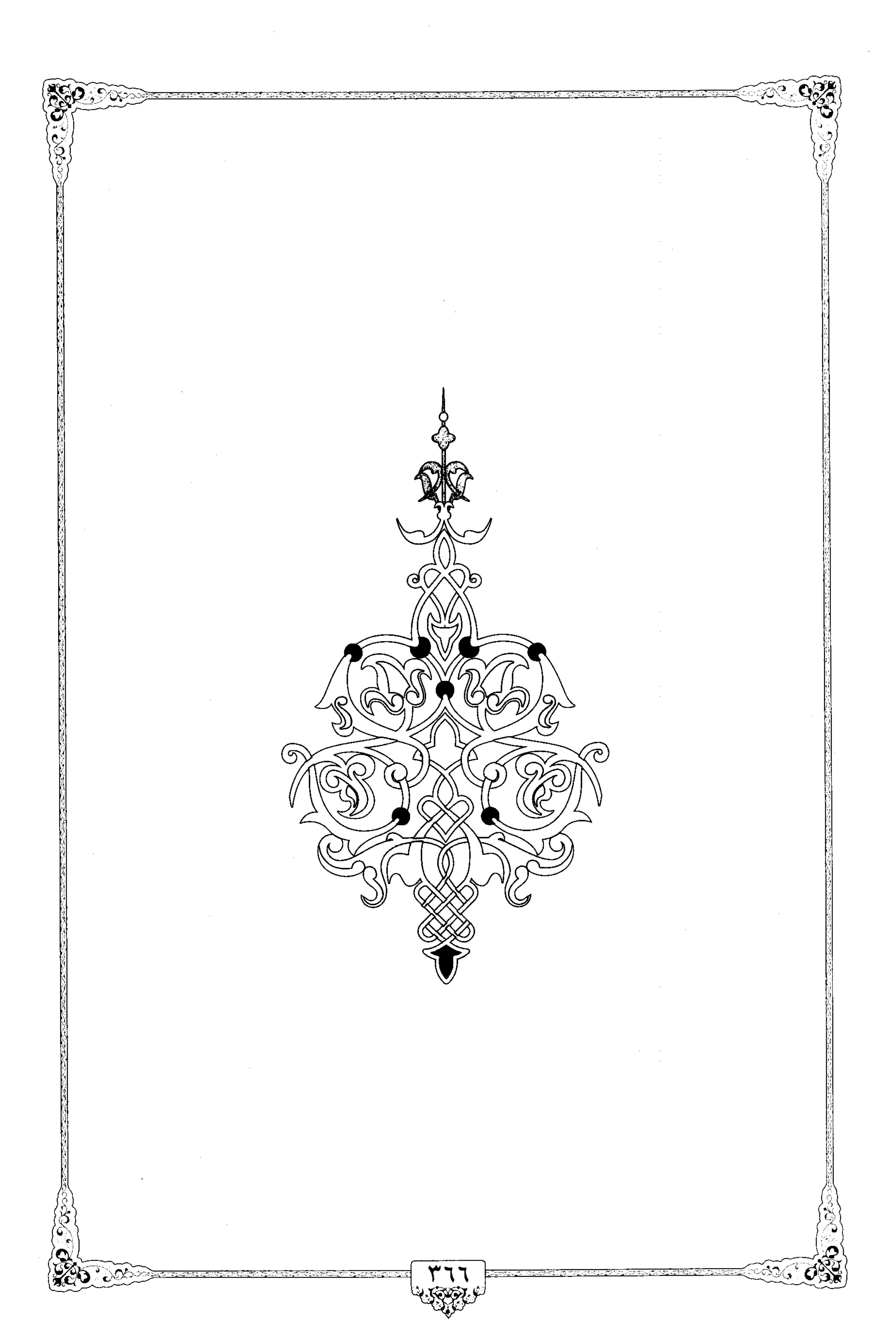
عنـدي مِـنَ الأيّـام مـا لـو أنّـهُ أضحىٰ بشاربِ مُرقِدٍ ما غَمَّضا
لا تطلُبَـنَّ الـرِّزقَ بعـدَ شِمـاسِهِ فتـرُومَـهُ سَبُعـاً إذا مـا غَيَّضـا
مـا عُـوِّضَ الصَّبـرَ امـرُؤٌ إلا رأىٰ مـا فـاتَـهُ دونَ الـذي قـد عُـوِّضـا

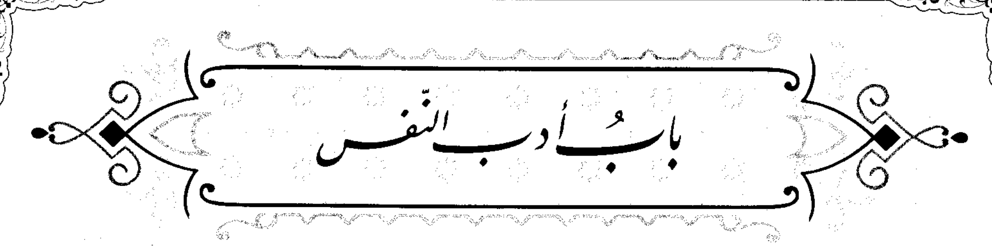
(١) رواه الخطيب في « موضح أوهام الجمع والتفريق » (٢/ ٣٨١) عن ابن الجذع عن أبيه ، والبخاري في « التاريخ الكبير » (٨/ ٣٠٥) عن ابن الحوا عن أعمامه ، وفي (ب ، ج) : (عن ابن أبي الجذع عن أعمامه. . .) .

(٢) الأبيات في « ديوانه » (٢/ ٣٠٣) ، والمرقد : دواء مُنيم ، وما غمضا ؛ أي : عينه لشدة الأهوال ، وبعد شماسه : بعد امتناعه ، وغيضا : إذا دخل الغَيْضة ؛ أي : الأَجَمة .



البابُ الخامِسُ
في أدبِ النّفْسِ





بابُ أدبِ النّفس

اعلم : أنَّ النفس مجبولةٌ علىٰ شِيَم مهمَلة ، وأخلاق مرسَلة ، **لا تستغني بمحمودها عن التأديب** ، ولا تكتفي بالمرضيِّ منها عن التهذيب ؛ **لأن لمحمودها أضداداً مقابلة** ، يُسعدها هوىً مطاع ، وشهوةٌ غالبة .

فإن أغفل تأديبها تفويضاً إلى العقل ، أو توكُّلاً علىٰ أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع . . **أعدمه التفويضُ دَرْكَ المجتهدين** ، وأعقبه التوكُّلُ ندمَ الخائبين ، **فصار من الأدب عاطلاً**[1] ، وفي صورة الجهل داخلاً ؛ **لأنَّ أكثر الأدب مكتسَبٌ بالتجربة** ، أو مستحسَنٌ بالعادة ، **ولكلِّ قومٍ مُواضَعة** ، وكلُّ ذلك لا يُنال بتوقيف العقل ، ولا بالانقياد للطبع حتىٰ يُكتسَبَ بالتجربة والمُعاناة ، ويُستفادَ بالدُّرْبة والمُعاطاة ، **ثم يكون العقل عليه قَيِّماً** ، وزكيُّ الطبع إليه سُلَّماً .

ولو كان العقل مُغنياً عن الأدب . . لكان أنبياءُ الله تعالىٰ عن أدبه مستغنِينَ ، وبعقولهم مستكفين ؛ وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **بُعِثْتُ لأُتمِّمَ مَكارِمَ الأخلاقِ** »[2] .

وقيل لعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام : مَن أدَّبَكَ ؟ فقال : « **ما أدَّبَني أحدٌ ، رأيتُ جهلَ الجاهلِ فاجتنبتُه** »[3] .

وقال عليُّ بن أبي طالب عليه السلام : (**إنَّ اللهَ تعالىٰ جعل مكارمَ الأخلاق ومحاسنَها وُصَلاً** بينه وبينكم ؛ فبحسب الرجلِ أن يتَّصلَ من الله تعالىٰ بخُلُقٍ منها)[4] .

---

(١) درك المجتهدين : اللحاق بهم ، ومن الأدب عاطلاً ؛ أي : خالياً ، يقال للمرأة : عاطل إذا خلا جيدها من الحلي .

(٢) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٢٧٣) ، والحاكم في « المستدرك » (٢/ ٦١٣) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أورده في « بهجة المجالس » (١/ ١١٤) ، و« العقد الفريد » (٢/ ٤٤٢) .

(٤) أورده في « التذكرة الحمدونية » (٢/ ١٧٣) ، و« نثر الدرّ » (١/ ٣٠٤) .

وقال أردشير بن بابك : (من فضيلة الأدب : أنَّه ممدوحٌ بكل لسان ، ومتزيَّنٌ به في كل مكان ، وباقٍ ذكرُه علىٰ أيّام الزمان)[1] .

وقال مهبوذ : (شُبِّه العالِمُ الشريفُ العديمُ الأدبِ : بالبنيان الخراب الذي كلَّما علا سَمْكُه . . كان أشدَّ لوحشته ، وبالنهر اليابس الذي كلَّما كان أعرضَ وأعمقَ . . كان أشدَّ لوعورته ، وبالأرض الجيّدة المعطَّلة التي كلَّما طال خرابُها . . ازداد نباتُها غيرُ المنتفَع به التفافاً ، وصار للهوامِّ مسكناً) .

وقال ابن المقفَّع : (ما نحن علىٰ ما نتقوَّىٰ به علىٰ حواسِّنا من المطعم والمشرب بأحوجَ منَّا إلى الأدب الذي هو لقاحُ عقولنا ؛ فإنَّ الحبَّةَ المدفونة في الثَّرىٰ لا تقدر أن تطلع زهرتُها ونضارتُها إلا بالماء الذي يعود إليها من مُستودَعها)[2] .

وحكى الأصمعيُّ : أن أعرابيّاً قال لابنه : (يا بنيَّ ؛ الأدبُ دِعامةٌ أيَّدَ اللهُ بها الألبابَ ، وحِليةٌ زيَّنَ اللهُ بها عواطلَ الأحساب ؛ فالعاقلُ لا يستغني ـ وإن صحَّت غريزتُه ـ عن الأدب المخرِجِ زهرتَه ؛ كما لا تستغني الأرضُ ـ وإن عذُبَت تربتُها ـ عن الماء المخرجِ ثمرتَها)[3] .

وقال بعض الحكماء : (الأدب صورة العقل ، فصوِّر عقلَك كيف شئتَ)[4] .

وقال آخر : (العقلُ بلا أدب كالشجر العاقر ، ومع الأدب كالشجرة المثمرة)[5] .

وقيل : (الأدب أحد المنصبين)[6] .

---

(١) رواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٧٨٨) في فضيلة العلم .
(٢) الأدب الصغير (ص٢٨٣) ضمن « آثار ابن المقفع » .
(٣) أورده في « الكشكول » (٢/ ١٣٣) .
(٤) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٩) ، و« التذكرة الحمدونية » (٣/ ٢٦٨) .
(٥) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٩) .
(٦) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٩) .

وقال بعض البلغاء : (الفضلُ بالعقل والأدب ، لا بالأصل والنسب ؛ لأنَّ مَن ساء أدبُه . . ضاع نسبُه ، ومَن قلَّ عقلُه . . ضلَّ أصلُه)[1] .

وقال بعض الأدباء : (ذكِّ قلبَكَ بالأدب كما تُذكَّى النار بالحطب ، واتَّخِذ الأدبَ غُنْماً ، والحرصَ عليه حظّاً . . يرتجيك راغبٌ ، ويخافُ صولتَك راهبٌ ، ويُؤَمَّلُ نفعُك ، ويُرجىٰ عدلُك)[2] .

وقال بعض العلماء : (الأدب وسيلةٌ إلىٰ كلِّ فضيلة ، وذريعةٌ إلىٰ كل شريعة)[3] .

وقال بعض الفصحاء : (الأدب يسترُ قبحَ النَّسَب)[4] .

وقال بعض الشعراء : [من المتقارب]

فمــا خَلَــقَ اللهُ مثــلَ العُقُــولْ ... ولا اكتسَبَ النّـاسُ مثـلَ الأَدَبْ
ومــا كَــرَمُ المــرءِ إلا التُّقــىٰ ... ولا حَسَـبُ المـرءِ إلا النَّسَـبْ
وفـي العِلْـمِ زَيـنٌ لأهـلِ الحِجـا ... وآفـةُ ذي الحِلْـمِ طَيشُ الغَضَـبْ

وقال الأصمعيُّ[5] : [من البسيط]

إنْ يكُنِ العقلُ مولوداً فلَسْتُ أَرىٰ ... ذا العقلِ مستغنياً عن حادثِ الأدَبِ
إنِّـي رأيتُهمـا كـالمـاءِ مختلِطـاً ... بالتُّرْبِ تظهَرُ عنه زَهرةُ العُشُبِ
وكـلُّ مَـنْ أخطـأَتْـهُ فـي مَـوالـدِهِ ... غريزةُ العقلِ حاكى البَهْمَ في النَّسَبِ

---

(١) أورده في « الإعجاز والإيجاز » (ص٣٨) ، و« الكشكول » (٢/ ١٣٣) .
(٢) أورد بعضه في « التذكرة الحمدونية » (٣/ ٣٣٠) ، و« العقد الفريد » (٣/ ١٥٧) من وصية سيدنا علي رضي الله عنه لابنه محمد رحمه الله تعالىٰ ، وذَكِّ : أمرٌ من التذكية ، يقال : ذكتِ النار ؛ أي : اشتد لهيبها ، أي : نَوِّرْه به .
(٣) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص١٥٩) .
(٤) أورده العاملي في « الكشكول » (٢/ ١٣٣) .
(٥) روى الأبيات القالي في « ذيل الأمالي » (٣/ ٣٣) ، والمحاكاة : المشابهة .

والتأدُّبُ يلزم من وجهين :

أحدهما : ما لزم الوالدَ للولد في صغره .

والثاني : ما لزم الإنسانَ في نفسه عند نشوئه وكبره .

فأمّا التأدُّبُ اللازم للأب . . فهو أن يأخذ ولدَه بمبادىء الآداب ؛ ليأنس بها ، وينشأ عليها ، فيسهل عليه قَبولُها عند الكبر ؛ لاستئناسه بمبادئها في الصغر ، لأن نشوء الصغير على الشيء يجعله متطبِّعاً به ، **ومَن أُغفِل في الصِّغَر . . كان تأديبه في الكِبَر عسيراً .**

وقد رُوي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « **ما نحَلَ والدٌ ولَدَهُ نِحْلةً أفضلَ مِن أدبٍ حسنٍ** يُفيدُهُ إيّاه ، أو جهلٍ قبيحٍ يكفُّهُ عنه ، ويمنعُه منه »[1] .

وقال بعض الحكماء : (**بادِروا بتأديب الأطفال** قبلَ تراكم الأشغال ، وتفرُّق البال)[2] .

وقال بعض الشعراء[3] : [من البسيط]

قد ينفعُ الأدَبُ الأحداثَ في مَهَلٍ ... وليـسَ ينفَـعُ بعـدَ الشَّيبـةِ الأدَبُ
إنَّ الغصونَ إذا قوَّمتَها اعتدلتْ ... ولا يليـنُ إذا قـوَّمتَـهُ الخَشَـبُ

وقال آخر[4] : [من البسيط]

يَنشُو الصَّغيرُ علىٰ ما كان والدُهُ ... إنَّ الأصـولَ عليهـا تنبُـتُ الشَّجَـرُ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٦٣) ، والترمذي (١٩٥٢) عن سعيد بن العاص رحمه الله تعالىٰ مرسلاً .
(٢) أورد أوله في « محاضرات الأدباء » (١/ ٩٥) ، وانظر « فيض القدير » (٣/ ٣٩٤) .
(٣) البيتان لصالح بن عبد القدوس في « ديوانه » (ص١٣٣) ، ونسبهما في « بهجة المجالس » (١/ ١١٣) لسابق البربريّ ، وفي « الحماسة المغربية » (٢/ ١٢٤٨) لطرفة .
(٤) أورد البيت في « جمهرة الأمثال » (٢/ ٢٩٨) ، و« الموشّىٰ » (ص٢١) .

وأمّا الأدب اللازم للإنسان عند نشوئه وكبره.. فأدبان : أدب مُواضَعة واصطلاح ، وأدب رياضة واستصلاح .

فأمّا أدبُ المواضعة والاصطلاح : فيؤخَذ تقليداً علىٰ ما استقرَّ عليه اصطلاحُ العقلاء ، واتَّفق عليه استحسانُ الأدباء .

وليس لاصطلاحهم علىٰ وضعه تعليلٌ مستنبَط ، ولا لاتِّفاقهم على استحسانه دليلٌ موجِب ؛ كاصطلاحهم علىٰ مُواضَعات الخِطاب ، واتِّفاقهم علىٰ هيئات اللباس ؛ **حتّىٰ إنَّ الإنسان الآن إذا تجاوز ما اتَّفقوا عليه منها.. صار مجانِباً للأدب** ، مستوجِباً للذمِّ ؛ **لأنَّ فراق المألوف في العادة** ، ومُجانَبة ما صار متَّفقاً عليه بالمُواضعة.. **مُفضٍ إلى استحقاق الذمِّ بالعقل** ، ما لم يكن لمخالفته علّةٌ ظاهرةٌ ، ومعنىً حادثٌ .

وقد كان جائزاً في العقل أن يُوضَعَ ذلك علىٰ غير ما اتَّفقوا عليه ، فيرونه حسناً ، ويرون ما سواه قبيحاً ، **فصار هٰذا مشاركاً لما وجب بالعقل من حيثُ** توجُّهُ الذمِّ علىٰ تاركه ، **ومخالفاً له من حيث إنه كان جائزاً في العقل أن يُوضَعَ علىٰ** خلافه .

وأمّا أدبُ الرياضة والاستصلاح : فهو ما كان محمولاً علىٰ حالٍ لا يجوز في العقل أن تكون بخلافها ، ولا أن يختلف العقلاء في صلاحها وفسادها .

وما كان كذلك.. فتعليلُه بالعقل مستنبَط ، ووضوحُ صحّته بالدليل مرتبِط ، وللنفس علىٰ ما يأتي من ذلك شاهدٌ ألهمها الله تعالىٰ إرشاداً لها ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ قال ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما : (**بيَّن لها ما تأتي من الخير ، وتذَرُ من الشرِّ**)[1] .

وسنذكر تعليلَ كل شيءٍ في موضعه ؛ فإنَّه أولىٰ به وأحقُّ .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (١٥/ ٣٠/ ٢٦٤) .

فأوّل مقدِّمات أدب الرياضة والاستصلاح : ألاَّ يسبقَ إلىٰ حسن الظن بنفسه ، فيخفىٰ عنه مذمومُ شِيَمه ، ومساوِئُ أخلاقه ؛ لأن النفوس بالشهوات آمرة ، وعن الرشد زاجرة ، ولذا قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾(1) .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أَعدىٰ عدوِّكَ نفسُكَ التي بين جَنبَيكَ ، ثم أهلُكَ ، ثم عِيالُكَ »(2) .

ودَعَت أعرابيّةٌ لرجلٍ فقالت : (كَبَتَ اللهُ كلَّ عدوٍّ لكَ إلا نفسَكَ)(3) .

فأخذه بعض الشعراء فقال(4) : [من السريع]

قلبي إلىٰ ما ضَرَّني داعِي يُكثِرُ أسقامي وأوجاعي
كيفَ احتراسي مِن عدوِّي إذا كان عدوِّي بينَ أضلاعي

وإذا كانت النفس كذلك . . فحسنُ الظنِّ بها ذريعةٌ إلىٰ تحكيمها ، وتحكيمُها داعٍ إلىٰ سَلاطتها ، وفسادِ الأخلاق بها ، وإذا صرف حسنَ الظنِّ عنها ، وتوسَّمَها بما هي عليه من التسويف والمكر . . فاز بطاعتها ، وانحاز عن معصيتها .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالىٰ عنه : (العاجزُ : مَن عجز عن سياسة نفسه)(5) .

وقال بعض الحكماء : (مَن ساس نفسَه . . ساد ناسَه) .

---

(1) أراد الجنس ؛ أي : إن هٰذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات إلا ما رحم ربي بالعصمة لمن خصَّهم بذلك ؛ كالملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(2) رواه البيهقي في « الزهد » (٣٤٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، والديلمي في « الفردوس » (٥٢٤٨) عن سيدنا أبي مالك الأشعري رضي الله عنه ، وأعدىٰ أعدائك ؛ أي : مِنْ أشد أعدائك ، وليس المراد بالعداوة البغض ، بل المراد : المحنة المفوِّتة للخير .

(3) أورده في « البيان والتبيين » (٣/ ٢٧١) ، ورواه في « المجالسة وجواهر العلم » (١٩٣٣) ، وكبت : صرع وأذل وأخزىٰ .

(4) البيتان للعباس بن الأحنف في « ديوانه » (ص٢٠٢) ، ونسبهما في « الأغاني » (٢٧/ ٩٣٥٤) لبكر بن خارجة .

(5) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٧/ ١٠٠) ، والذهبي في « تاريخ الإسلام » (٢٣/ ٦١٩) عن أبي عمر الدمشقي رحمه الله تعالىٰ .

فأمّا سوءُ الظنّ بها . . فقد اختلف الناس فيه :

ـ فمنهم مَن كرهه ؛ لما فيه من اتهام طاعتها ، وردِّ مُناصحتها ؛ فإنَّ النفس وإن كان لها مكرٌ يُردي . . فلها نُصحٌ يهدي ، فلمّا كان حسنُ الظنِّ بها يُعمي عن مَساويها . . كان سوءُ الظنِّ بها يُعمي عن محاسنها ، ومَن عمي عن محاسن نفسه . . كان كمَن عمي عن مَساويها ، فلم ينفِ عنها قبيحاً ، ولم يُهدِ إليها حسناً .

وقد قال الجاحظ في كتاب « البيان » : (يجب أن يكون في التهمة لنفسه معتدلاً ، وفي حسن الظنِّ بها مقتصداً ؛ فإنَّه إن تجاوز مقدار الحقِّ في التُّهمة . . ظلَمها ، فأودَعها ذِلَّةَ المظلومين ، وإن تجاوز بها الحقَّ في مقدار حسن الظنِّ . . أودعها تهاوُنَ الآمنين ، ولكلِّ ذلك مقدارٌ من الشغل ، ولكلِّ شغلٍ مقدارٌ من الوهن ، ولكلِّ وهنٍ مقدارٌ من الجهل)[1] .

وقال الأحنف بن قيس : (مَن ظلم نفسَه . . كان لغيره أظلمَ ، ومَن هدم دينَه . . كان لمجده أهدمَ)[2] .

ـ وذهب قوم إلىٰ أنَّ سوء الظنِّ بها أبلغُ في صلاحها ، وأوفرُ في اجتهادها ؛ لأن للنفس جَوْراً لا ينفكُّ إلا بالسخط عليها ، وغروراً لا ينكشف إلا بالتهمة لها ؛ لأنَّها محبوبةٌ تجور إدلالاً ، وتغرُّ مكراً ، فإن لم يُسيءِ الظنَّ بها . . غلب عليه جَوْرُها ، وتموَّه عليه غرورُها ، فصار بميسورها قانعاً ، وبالشُّبَه من أفعالها راضياً .

وقد قالت الحكماء : (مَن رضي عن نفسه . . أسخطَ عليه الناسَ) .

وقال كشاجم[3] : [من الكامل]

لم أرضَ عن نفسي مَخافةَ سُخْطِها ورِضا الفتىٰ عن نفسِهِ إغضابُها
ولَوَ اَنَّني عنها رَضِيتُ لقصَّرَتْ عمَّا تزيدُ بمثلِهِ آدابُها

---

(١) البيان والتبيين (١/ ٩٣) في بيان ما يجب أن يتصف به الخطيب لتجتمع لديه آلة البلاغة .
(٢) أورده في « التمثيل والمحاضرة » (ص٤٥٢) ، و« ربيع الأبرار » (٣/ ٥٠٠) .
(٣) الأبيات في « ديوانه » (ص٣٣) .

وتبيَّنَتْ آثار ذاكَ فأكثَرَتْ عَذْلي عليهِ وطالَ فيه عِتابُها

وقد استُحسِن قولُ أبي تمّام الطائيّ[1] : [من الكامل]

ويُسيءُ بالإحسانِ ظَنّاً لا كَمَنْ هُوَ بابنِهِ وبشِعْرِهِ مفتُونُ

فلم يرَوا إساءةَ ظنِّه بالإحسان ذمّاً ، ولا استقلال عمله لَوْماً ، بل رأوا ذلك أبلغَ في الفضل ، وأبعثَ على الازدياد .

فإذا عرف من نفسه ما تُجِنُّ ، وتصوَّر منها ما تُكِنُّ[2] ، ولم يطاوعْها فيما تحبُّ إذا كان غَيّاً ، ولا صرف عنها ما تكره إذا كان رشداً . . فقد ملكها بعد أن كان في مَلَكتها ، وغلبها بعد أن كان في غَلَبتها .

وقد روىٰ أبو حازم ، عن أبي هريرة رضي الله تعالىٰ عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشَّديدُ مَن غلَبَ نفسَهُ »[3] .

وقال عون بن عبد الله : (إذا عصَتْكَ نفسُكَ فيما كرهَتْ . . فلا تُطِعْها فيما أحبَّتْ ، ولا يغرَّنَّكَ ثناءُ مَن جهل أمرَكَ)[4] .

وقال بعض البلغاء : (مَن قوِيَ علىٰ نفسه . . تناهىٰ في القوّة ، ومَن صبر عن شهوته . . بالغ في المروّة) .

فحينئذٍ يأخذ نفسَه عند معرفة ما أكنَّت ، وخبرةِ ما أجنَّت بتقويم عِوَجِها ، وإصلاحِ فاسدها .

وقد رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يا رسولَ الله ؛ متىٰ يعرفُ الإنسانُ ربَّه ؟ فقال : « إذا عرَفَ نفسَهُ »[5] .

---

(١) البيت في « ديوانه » (٣/ ٣٣١) .
(٢) ما تُجِن وما تُكِن : ما تُخفي وما تَستر .
(٣) رواه ابن حبان في « صحيحه » (٧١٧) ، وهنّاد في « الزهد » (١٣٠٢) .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٥١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٧٩) .
(٥) ذكر الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص٤١٩) أنه من قول يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالىٰ ، ولا يُعرف مرفوعاً ، وقيل في تأويله : (من عرف نفسه بالحدوث . . عرف ربه بالقِدَم ، ومن عرف نفسه بالفناء . . عرف ربه بالبقاء) .

ثم يراعي منها ما صلح واستقام من زيغ يحدُث عن إغفال ، أو ميل يكون عن إهمال ؛ **ليتمَّ له الصَّلاحُ** ، وتستديم له الاستقامةُ ؛ **فإنَّ المُغفَل بعد المُعاناة ضائعٌ** ، والمُهمَل بعد المُراعاة زائغ .

وسنذكر من أحوال أدب الرياضة والاستصلاح فصولاً تحتوي علىٰ ما يلزم مراعاتُه من الأخلاق ، ويجب معاناتُه من الآداب ، **وهي ستةُ فصولٍ متفرِّعة** .